يتمتع بحس نزيه في اوروبا، هذه، كلها، دلائل تؤكد أن ما صنعه نعيم، هو وأقرانه من الرواد البواسل، لم يكن شيئاً قليلاً حتى تستطيع الجريمة أن تلغيه.

والذي كان له في حياته كل هذا الأثر، صار له في استشهاده كل هذا التأثير: وكما كان نعيم ثرّ العطاء في حياته، فإن استشهاده لا يختم سلسلة اسهاماته من أجل انتصار قضية شعبه، بل يفتح صفحة جديدة من العطاءات المتدفقة. وقد رسم نعيم نصيبه من خطوط هذه الصفحة بمناقب رفيعة فرضت، حتى على ألدّ خصوم الشعب الفلسطيني، احترامه، وبعقل نيرّ رعاه وأغناه بتفاعله مع ثورة شعبه وباستشفافه لأمجد ما فيها وبتحرره من التهيب الذي يوقع البعض في أسرْ السائد والمريح.

كان نعيم قادراً على الجمع بين الصلابة المبدئية التي توجه الكفاح الوطني الفلسطيني والمرونة التي يقتضيها موقعه الديبلوماسي في ساحة لا تقيم وزناً للمبادىء. كان يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، لكنه لم يكن يسوّر نفسه بجدار صيني يحجب الرؤية. وكم كان نجاحه عظيماً في تحقيق الموازنة بين المطلوب والممكن في زمن حلا فيه للبعض أن يجعلوا من المستحيل سياسة، ومن الجمل الثورية برامج وخططاً يجري الدفاع عنها بالعبارات الطنانة وحدها.

وإذا كانت الريادة الناجحة هي التي تقتحم، ليس من أجل مجد الاقتحام، بل لاجتذاب المزيد من الرواد على الطريق الصحيح، فإن كفاح نعيم خضر قدم نموذجاً فذاً في هذا المجال. والذين تعاملوا معه، من الأصدقاء ومن الخصوم ومن الباحثين عن موقع بين بين، عرفوا كلهم نعيماً واحداً: المناضل الوطني المثابر بفكره الثاقب ومنطقة المتماسك وصبره على ادارة الحوارات، وجلده في رعاية البذور التي لا يأتي جناها للتوّ، عرفوه بايمانه بعدالة القضية التي يخدمها، وبثقته بمستقبلها، وبمقدرته على التعامل مع الحقائق بايصالها وقبولها.

والمدهش أن نعيم خضر، ابن القرية الفلسطينية الصغيرة، الذي انتهى به الأمر طالباً بين الوف الطلبة العرب في اوروبا، لم يلبث أن أصبح قادراً على التعامل مع أساطين هذه القارة العتيقة من موقع الند. فكأنما تعتّق، هو نفسه، في دهاليز الكواليس التي ترسم سياسات اوروبا، واكتسب ما اكتسبه ساستها من خبرات، واضافه إلى رصيده من الوطنية الفلسطينية التي تربى عليها وبها، وطوع هذا كله لخدمة مبدئيته الصلبة النابعة من إيمانه بعدالة مطالب الشعب الفلسطيني ومصداقيتها وقدرتها على الثبات وسط الأعاصير والمناورات.

فمن،هو، بعد، هذا الفارس، ومن أين جاء تميزه؟ وكيف تحول استشهاده، وقد اريد له أن يكون رسالة انذار لجيل الرواد من المناضلين في الثورة الفلسطينية، إلى وثبة تشد عزيمتهم وتعزز ثقتهم بالنصر؟

إن الجواب على هذا كله يكمن في السر الفلسطيني الذي تبرق به العيون الحاذقة